الطباق والمقابلة في السور المكية
(دراسة بلاغية تحليلية)

أ. م. د. عروبة خليل الدباغ

من علوم البلاغة بالمعاني اللغوية لهذه الكلمة في المعجمات.

البديع لغة:

(بدع الشيء يبدعه بدعاً وأبتداعه: أنشاه وبدأه، وأبتدعت الشيء: أخترعه لا على المثال)(١)، ومنه (البديعُ) أسم من أسماء الله تعالى بمعنى المُبدِع، أي: الموجِد للأشياء بلا مثالٍ تقدم.

علم البديع في الاصطلاح:

هو العلم الذي تعرف به المحسنات الجمالية اللفظية أو المعنوية التي لم تلحق بعلم المعاني ولا بعلم البيان(٢) تناول السكاكي فنون البديع بمنهجه الكلامي، وسماها محسنات ورآها وجوهاً مخصوصة كثيراً ما يلجأ إليه لقصد تحسين الكلام، وقد صنفها الى قسمين: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ(٣)، ومن المحسنات المعنوية: الطباق.

أقسام الطباق:

والطباق قسمان: حقيقي ومجازي، ويخص بعضهم الثاني بأسم التكافؤ، وكل منهما إما بفظي وإما طباق إيجاب أو طباق سلب(٤).

فالطباق الحقيقي: ما كان بألفاظ الحقيقة، سواء كان من أسمين أو فعلين أو حرفين، كقوله تعالى "وتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهم رُقُودٌ" (الكهف/ ١٨).

والطباق المجازي: ما كان بألفاظ المجاز، كذا قالوا، الذي أراه: أن يترط فيه أن يكون المعنيان المجازيان متقابلين أيضاً، وإلا دخل فيه إيهام الطباق – وهو الجمع بين معنيين غير متقابلين، عبر عنهما بلفظين يتقابل معناهما الحقيقيان وقد جعلوه نوعاً أخر غير المجازي(٥)، قوله تعالى "أَوَ مَن كَانَ مَيتا فَأَحيَينَٰهُ " (الإنعام / ١٢٢) أي ضالاً فهديناه، فالموت والحياة متقابل معناها المجازيان، وهما الضلال والهدى، ومعناهما الحقيقيان المعروفان.

أما الطباق المعنوي: هو مقابلة الشيء بضده في المعنى، نحو قوله تعالى " "قَالُواْ مَا أَنتُم إِلَّا بَشَر مِّثلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحمنُ مِن شَيءٍ إِن أَنتُم إِلَّا تَكذِبُونَ" قَالُواْ رَبُّنَا يَعلَمُ إِنَّا إِلَيكُم لَمُرسَلُونَ " (يس/١٥-١٦)، المقصود بـ (المرسلون) لصادقون، فالمعنى: ربنا يعلم إنا لصادقون، فطابق سبحانه وتعالى في معنى اللفظ(٦).

أنواع الطباق:

١- طباق الأيجاب:

هو الجمع بين كلمتين متضادتين موجبتين بدون أداة نفي، أو هو ذكر الشيء وضده، مثل هذا الكتاب كثير الأبواب، قليل الفصول، يوجد طباق في (كثير) و (قليل).

قوله تعالى " يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ " (غافر:٣٣) طباق إيجاب بين (مضلل) و (هاد)(٧).

٢- طباق السلب:

هو الجمع بين كلمتين متفقتين في المعنى بينهما أداة نفي.

ومن الطباق نوع يسمى الطباق الخفي، والملحق بالطباق، وهو الجمع بين معنيين يتعلق أحدهما بما يقابل الآخر، نوع تعلق مثل السببية واللزوم، كقوله تعالى "وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (القصص:٧٣), فإن ابتغاء

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الفضل وإن لم يكن مقابلاً للسكون لكنه يستلزم الحركة المضادة للسكون, ومن قوله تعالى "مِّمَّا خَطِيٰٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا "(نوح:٢٥) لأن إدخال النار يستلزم الإحراق المضاد الإغراق، وقيل لأن الغرق من صفات الماء، فكانه جمع بين الماء والنار، قال ابن منقذ: وهي أخفى مطابقة في القرآن(٨).

صور الطباق(١) وبلاغتها:

انتهينا من الدراسة التطويرية لهذه الصورة البلاغية التي تنقسم باعتبار طرفيها إلى قسمين:

الأول: حقيقي، وهو ما كان طرفاه بألفاظ الحقيقة فعلين أو أسمين أو حرفين أو مختلفين(٩).

فمن الطباق الظاهر بالإيجاب في الطرفين الحقيقيين وهما أسمان.

قول الله تعالى "وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ "(الكهف:١٨) وقوله تعالى "وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي " (هود:٤٤)(١٠) طباقاً بين (أيقاضاً) و (رقود) وهما اسمان.

ومن الطباق الظاهر بغلإيجاب في الطرفين الحقيقيين وهما فعلان:

وقول النبي (صلى الله عليه وسلم: "أفظ الفضائل أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتصفح عمن شتمك"، طباقاً بين (تعز) و (تذل)، وبين (تؤتي) و (تنزع) وكلها أفعال.

ومن الطباق الظاهر بالإيجاب في الطرفين الحقيقيين وهما حرفان:

ومن الطباق الظاهر بالإيجاب في أحد الطرفين وبالسلب في الطرف الآخر:

قول الله تعالى "وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ" (الروم:٦ - ٧)

الثاني: مجازي، وهو ما كان طرفاه غير حقيقيين، أي استعملا في غير موضعهما سواء كان فعلين أو اسمين أو حرفين أو مختلفين، هذا ما قاله أكثر البلاغيين، ولم يعجب هذا التعريف للطباق المجازي معصوم، فاشترط فيه أن يكون المعنيين المجازيان متقابلين أيضاً وألا دخل فيه إبهام التضاد.

ومثال الطباق المجازي من القرآن واللفظان اسمان قوله تعالى "أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فأحييناهُ" أي ضالاً، فالموت والأحياء لفظان مجازيان ومعناهما متضادان (الهدى والضلالة)، واللفظان متضادان حقيقة أيضاً(١١).

ومن الطباق الخفي بالإيجاب:

قوله تعالى " ممّا خطيئاتهم أغْرِقُوا فأدخلُوا ناراً" توضيح ذلك أن إدخال النار ليس ضد الإغراق في المعنى ولكنه يستلزم ما يقابله وهو الإحراق(١٢).

الفائدة البلاغية للطباق:

١- إبراز المعنى وتوضيحه.

٢- استمرار الحدث ودوامه.

٣- شمولية الحدث.

الطباق يساعد على تداعي الأفكار في الأذهان، باعتبار أن الطباق أقرب تخاطراً إلى الأذهان من المتشابهات والمتخالفات(١٣).

جماليات المطابقة:

يُخيل إلينا جمالية هذا المحسّن البديعي راجعة في بعض النواحي إلى أنه يجمع الأضداد ويلّم شتات المتنافرات في موضع واحد فيحدث في الذهن ضرباً من الانتقال السريع لين الضد وضدُه والندّ وندِه، وحين يتحقق للإدراك هذه الإحاطة بالمتباعدات في الواقع على هذا النحو السريع وعلى هذه الصورة التي يتجاوز فيها الماء والنار والأبيض والأسود، يأنس شيئاً من البهجة والرضا، ويبدو أن المتباعدات في المعنى أقدر من غيرها في تنشيط الفعالية الإدراكية، كما يتلاشى شيء من هذه الجمالية من التعجب والإدهاش اللذين يحدثان للذهن عند إدراك الأفعال المتضادة المنسوبة إلى فاعل واحد، نلمس ذلك جلياً في قوله سبحانه " وأنهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى، وأنَّهُ هُوَ أماتَ وأَحيَا"(١٤).

أقسام المقابلة:

ومن الصور التي تندرج تحت التطابق اللفظي بالتضاد (المقابلة) نفياً وإيجاباً، والفرق بينها وبين الصور السابقة أن هذه الصورة في الجمل والتي قبلها في المفردات، وأن هذا الجمع بين الضدين فأكثر، والتي قبلها الجمع بين الشيئين فقط.

ثم تكلم عنها أبو هلال العسكري تحت أسم المقابلة(١٥)، وعرفها بقوله: هي إيراد الكلام، ومقابلته بمثله في المعنى على جهة الموافقة والمخالفة، فأما ما كان منها في المعنى فهو مقابلة الفعل بالفعل، قوله سبحانه " نَسُوا الله فَنَسيهُم " فهذه مقابلة في اللفظ والمعنى.

جعلها السكاكي والقزويني شعبة من الطباق، جاء في الإيضاح: (ودخل في المطابقة ما يخص باسم المقابلة، وهي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة ثم يؤتى بما يقابلها أو يقابلها على الترتيب) (١٦).

وفساد المقابلة أن تذكر معنى تقتضي الحال ذكرها بموافقة أو مخالفة، فيؤتى بما لا يوافق ولا يخالف، مثل أن تقول: ما صاحبت خيراً، ولا فاسقاً، وما جاءني أحمر، ولا أسمر، ووجه الكلام أن تقول: ما صاحبت خيّراً ولا شريراً، وما جاءني أحمر ولا أسود(١٧).

صور المقابلة:

تقوم صور المقابلة على الأعتبار العددي، فقد تقابل الكلمتان بكلمتين، أو الثلاثة بالثلاثة، وهكذا تكون صور المقابلة وتعددها، وهذا الإعتبار العددي لا الأصل الذي يبنى عليه بلاغة المقابلة واستحسانها وعدم بلاغتها، فالأصل المعتبر في بلاغة الكلام توفيق المتكلم وأهتدائه إلى الصورة التي تمكنه من التعبير عن معانيه وأغراضه(١٨).

وصور المقابلة هي أما:

- **ثنائية:**

قوله تعالى "فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ " (التوبة:٨٢) فالمقابلة بين الجملة الأولى (فليضحكوا قليلاً), والجملة الثانية (وليبكوا كثيراً)(١٩).

- **ثلاثية:**

قوله تعالى "يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ "(الأعراف:١٥٧)، المقابلات هي:

(يأمرهم بالعروف) و (ينهاهم عن المنكر).

(يحل لهم الطيبات) و يحرم عليهم الخبائث)(٢٠).

- **رباعية:**

مقابلة أربعة بأربعة، قوله تعالى:

المقابلات هي: (فأما من أعطى وأتقى، وصدق بالحسنى، فسنيسره لليسرى) تقابلها، (وأما من بخل واستغنى، وكذب بالحسنى، فسنيسره للعسرى) (٢١).

صحة المقابلة:

صحة المقابلة عبارة عن تؤخي المتكلم ترتيب الكلام على ما ينبغي، فإذا أتى بأشياء في صدر كلامه أتى بأضدادها في عجزه على الترتيب، ومتى أخل بالترتيب كان الكلام فاسد المقابلة.

ومن معجز هذا الباب قوله تعالى "وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (القصص:٧٣), جيء بـ(الليل والنهار) في صدر الكلام، ثم قابلهما في عجز الكلام بضدين، وهما (السكون والحركة) على الترتيب، ثم عبر الحركة بلفظ الإرداف، فلسلزم الكلام ضرباً من المحاسن زائدة على المقابلة، وعدل عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل، وهي تشير إلى الأمانة بالقوة، وحسن الاختيار الدّال على رجاحة العقل وسلامة الحس.

والآية سيقت للأعتدام بالنعم، فوجب العدول عن لفظ الحركة إلى لفظ هو ردفة وتابعه ليتم حس البيان، فتضمنت هذه الكلمات التي هي بعض آية عدة من المنافع والمصالح، التي لو عُددت بألفاظها لأحتاجت إلى إلفاظ كثيرة، فحصل في الكلام بهذا السبب عدة ضروب من المحاسن(٢٢)

جماليات المقابلة:

يبدو أن جمالية هذا المحسن البديعي تعتمد في جانب منها على ما في التطابق من جماليات أشرنا لها فأن المقابلة ضربٌ من المطابقة ولا تختلف عنها إلا في الكم، ففي المقابلة يكون التقابل بين معنيين على الأقل، أما في الطباق فلا تكون إلا بين معنى واحد، ويضاف إلى ذلك جمالية أخرى هي (تحقيق التوقيع) فإن المتلقي حين يدرك التقابل بين المعنيين الأولين في المقابلة يعد نفسه بتلقي تقابل آخر فإذا تحقق له ذلك أحس بشيء من المتعة هي التي نأنسها عندما تتحقق توقعاتنا(٢٣)،

الخاتمة

أن طبيعة البحث في موضوع الطباق والمقابلة في السور المكية، أقتضت من بعد الجهد والحرص أن أضع خاتمة هي خلاصة النتائج التي توصفت إليها، أجعلها فيما يأتي:

١- الطباق من المحسنات البديعية في اللغة، والتي يرجع معناها الى مقابلة متضادين، ويشترط في هذا التضاد التقابل، فتأتي بأسم يقابله أسم، وتأتي بفعل يقابله فعل، وينطبق هذا في الطباق المجازي، إذ تأتي بألفاظ

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

مجازية غير حقيقة.

٢- تجد آثر الطباق في النص القرآني، إذ الجمع بين المتضادين يضيق جمالية في الأسلوب، وروعة في المعنى، فضلاً عن أعطاء النص جاذبية فعالة لأن فيه صفاء اللغة، وعذوبة الكلمة، وتأثيره في نفس سامعيه.

٣- المقابلة أسلوب من الأساليب المهمة في علم البديع له قيمته في ترجيح المعاني وتقويتها.

٤- هناك فرق بين المقابلة والطباق، فالمقابلة قد تكون بين الأضداد والتوافقات، أما الطباق فلا يكون إلا بين الأضداد فحسب، زيادة على أن المقابلة بين شيئين فأكثر، بخلاف الطباق الذي يكون بين شيء وضده.

٥- للمقابلة آثر في بيان معنى اللفظ القرآني وتوجيه أقوال المفسرين، إذ بأسلوب المقابلة يمكن طرح احتمالاً للمعاني التي قد تكون بعيدة عن المقصد الذي يريده النص القرآني أو اللفظ القرآني.

٦- والملاحظ أن المقابلة أعم من الطباق، ذلك أن فيها تقابلاً بين التوافقات أو التخالفات، وليس في المطابقة تناظر إلا في المتخالف فحسب، وهذا هو الفرق الذي يظهر به عموم المقابلة على الطباق وهذا ما عمل عليه البلاغيون في الحديث عن الطباق، حيث بينوا (أن الطباق لا يكون إلا بين ضدين في الغالب، في حين أن المقابلة تكون بالأضداد وغيرها)، يضاف الى هذا أن المقابلة تقع بين الجمل أما الطباق فيقع بين الكلمات

الهوامش

١- لسان العرب: جمال الدين محمد ابن منظور، ج ٨، مادة (بدع)، دار صادر، بيروت، ص ٦.

٢- ينظر: الكافي في البلاغة، أيمن أمين عبد الغني، دار التوفيقية للتراث، ط٢، القاهرة، ٢٠١١، ص ٧.

٣- ينظر: البلاغة والتطبيق، أحمد مطلوب، كامل حسين البصير، ط٤، مطابع بيروت، بيروت، ٢٠١٥، ص ٤٠٤.

٤- ينظر: أنوار الربيع، ص ٣٣.

٥- ينظر: أنوار الربيع، ص ٣٧، وينظر البلاغة العربية، ص ٧٩.

٦- ينظر: الطباق في العربية، د. رحيم الخزرجي، م. هدى عبد الحميد السامرائي، ص ٨.

٧- ينظر: الكافي في البلاغة، ص ١٧٥.

٨- المصر السابق وينظر في البلاغة العربية، ص ٨٠.

٩- ينظر البلاغة الاصطلاحية، عبده عبدالعزيز قلقيلة، ط٣، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٢٩٢، وينظر: أنوار الربيع، ص ٤٢.

١٠- ينظر: بلاغة الطباق والمقابلة، ص ٢٥ – ٣٨.

١١- ينظر: التصوير البياني، د. محمد أبو موسى، ط٣، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٣ م، ص ٣٠٧.

١٢- ينظر: البلاغة الاصطلاحية، ص ٢٩٠.

١٣- ينظر: التصوير البياني، ص ٣٠٧.

١٤- ينظر: البلاغة الاصطلاحية، ص ٢٩٢.

١٥- ينظر: الكافي في البلاغة، ص ١٧٧ – ١٧٨.

١٦- ينظر: الكافي في علوم البلاغة العربية، ص ٥٦٩.

١٧- ينظر: الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبداللع العسكري، ط١، دار إحياء الكتب العلمية، ١٩٥٢ م، ص ٣٣٧.

١٨- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تغريد الشيخ محمد، أيمان الشيخ محمد، دار الكتب العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٤ م، ص ٢٤٢.

١٩- ينظر: الصناعتين، ص ٣٣٩.

٢٠- ينظر: بلاغة الطباق والمقابلة، ص ٦١.

٢١- ينظر: الإيضاح، ص ٢٤٢، وينظر: الكافي في البلاغة، ص ١٨٣.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

٢٢- ينظر: الكافي في البلاغة، ص ١٨٤.

٢٣- ينظر: البلاغة الاصطلاحية، ص ٢٩٦.

٢٤- ينظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، د.حقي محمد شرف، لجنة أحياء التراث الأسلامي، ص ١٧٩ – ١٨٠.

٢٥- ينظر: الكافي في علوم البلاغة العربية، ص ٥٧١.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أنوار الربيع في أنواع البديع، علي صدر الدين بن معصوم المدني، ط١، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٦٨ م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ت: غريد الشيخ محمد، أيمات الشيخ محمد، دار الكتب العربي، بيروت ط١، ٢٠٠٤ م.
- البديع في البديع، ابن المعتز، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٠ م.
- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد الزركشي، ن: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار المعارف، بيروت، ١٩٥٧ م.
- البلاغية الاصطلاحية، عبده عبد العزيز قلقيلة، ط٣، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٢ م.
- البلاغة والتطبيق،، احمد مطلوب، كامل حسين البصير، ط٤، مطابع بيروت، بيروت، ٢٠١٥ م.
- التصوير البياني، د. محمد أبو موسى، ط٣، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٣ م.
- التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني، دار الفكر العربي، ط١، بيروت ١٩٠٤ م.
- السيرة النبوية، ابن هشام، مع شرح أبي ذر الخشني، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه، د. همام عبدالرحيم سعيد، المجلد الأول، مكتبة المنار، ط١، الأردن، ١٩٨٨ م.
- الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري، ط١، دار أحياء الكتب العلمية ١٩٥٢ م.
- الكافي في البلاغة، أيمن أمين عبدالغني، دار التوفيقية للتراث، ط٢، القاهرة، ٢٠١١ م.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2